

## المحاضرة الثانية: الأدب الشعبي العام المفهوم والاصطلاح 2

### • الأدب الشعبي (المفهوم والاصطلاح):

يضع بعض الدارسين الأدب المكتوب والمعروف صاحبه خارج الأدب الشعبي، لكنهم لم يقننوه، ولم يضعوه في منزلة خاصة به، بحيث يصبح لدينا ثلاث منازل: الأدب الرسمي، الأدب الشعبي، الأدب المعروف صاحبه، (أو شيء من هذا القبيل) وأوقعوا المتلقي في حيرة الفهم، ((وغيبة الجهد النظري التأسيلي، وخلو الفاعليات البحثية الراهنة من محاولة تعريف الشعر الشعبي من خلال وقائعه المادية ذاتها لفي مقدمة الأمور التي قادت إلى افتقاد عمق تحليل النصوص المؤسس على الفهم الدقيق المتميز والمميز للجنس الفني محل الدراسة، وما انطوى عليه من أنواع و من ثم اقتصرت المحاولات على شرح للمضمون واستخلاص لمضامين نوعية بعينها أو تصنيفها على أساس الاغراض بالمفهوم الكلاسيكي، وفي أحسن الحالات وصف عام وتقريرى للشكل أو لمناسبات الأداء)).

كل هذا الذي لم يحصل أدى إلى إخلال في وضع المصطلح وفي عدم التناظر والتماثل في الأحكام المفهومية والتي نتج عنها هذا الخلط البين.

زيادة عن الوضع اللغوي تقابلنا ياء النسبية (الشعبي). من المعلوم أننا لا نستطيع إطلاق صفة الشعبية أو الشعبي على نص أدبي معين أو سلوك يمارس إلا إذا انتشر في الأوساط الشعبية وتداولته. وهذا ينطبق أيضا على النصوص الرسمية في الشعر إذا لم ينتشر بين القراء والمتذوقين، لم يعد شعرا، كذلك الرواية إذا لم تقرأ وبقيت حبيسة الأدراج، فهي ميتة.

الانتشار والتداول شرطان أساسيان إذا لتحقيق صفة الأدبية، ولم ينظر إلى هذه الحالة بصفة الريبة (( ولا شك في أن ثمة إدراكا مشتركا من الدارسين لما في إلحاق أو لصق صفة الشعبية – وغيره من المأثورات – من قصد إلى التمييز بين نوعين من الثقافة والفن ، وبعض الدارسين يدرك دوافع هذا التمييز وأنها تقوم على موقف معياري أخلاقي يخصم من حساب هذه الثقافة وهذا الفن ، ولا يضيف إليهما بل هو بسبب هذا التحديد لا يتركهما مستفيدين من انتمائهما للثقافة والفن في عموميتهما)). والأمر في القضية أن أغلب الباحثين الذين تعاملوا مع الموضوع، تعاملوا من موقفين، أما أن منطلقهم منطلق ايديولوجي ،وهو كما يرون الإبقاء على سلامة العربية الفصحى فحولوا هذه الصفة (الشعبية) من صفة طبيعية للثقافة الشعبية إلى قدح وهجاء لهذه الثقافة ،حتى يجعلوها دائما محل نقص مقارنة مع غيرها.

والموقف الثاني هو عدم متابعة التطور الفكري للإنسان ،فإنسان اليوم غير إنسان القرن الماضي، فالיום أغلب أفراد الشعب متعلمين ، كما أن الكثير منهم مرتبط ارتباطا ثقافيا وحضاريا بالتقدم التكنولوجي، فغابت عنه الصورة النمطية القديمة. غير أن الدراسيين لازالوا يبنون رأيهم على نظريات غربية قديمة لم تعد صالحة لوقتنا هذا.

والأدهى في الأمر حين يقرون أن من شروط الأدب الشعبي أن يكون جماعيا أي من إنتاج جماعي ،وأرى أن هذا لا يقبله المنطق ،فمن غير المعقول أن تجتمع مجموعة من الناس لتؤلف أدبا وبالتالي فالأفضل في التأليف الأول يعود للفرد (( وهذا الفرد الخلاق ليعيش حياة من نشاط إبداعي خلاق، يخلق الكلمة المعبرة)).

فكما أن وراء كل عمل رسمي فنان متميز، كذلك وراء كل لون فني شعبي فرد متميز ومزود بقدرات وملكات فنية تؤهله لذلك، وتميزه عن بقية الناس. فالنص الشعبي نتاج الموهبة الفردية للإنسان)). ولانتشار الأمية المطبقة على أغلب أفراد المجتمع في زمن ما، بقي النص متداولاشفاهيا، منتقلا من راو لآخر، وهنا يحدث ما لم يضعه المبدع للنص، فطبيعة التنقل من فرد لآخر تحدث زيادات مختلفة في النص، وتنتقل من زمان لآخر، حتى أننا في بعض الأحيان نجد النص الأخير يخالف النص الأول في بعض أجزائه، وهذه الزيادات المضافة يقوم بها فرد وليس جماعة، خاصة في النصوص الروائية، أما في النص الشعري فلا يحدث فيه إلا قليلا، وهذا ما نجده حتى في الشعر العربي القديم. لأن الراوي للشعر يعتمد بالدرجة الأولى على الحفظ دون ذلك، لا يمكن روايته بخلاف النصوص الأخرى. وبالتالي فإذا اسقطنا عن الشعبية كل المظاهر التي أصقت بها أصبحت فكرة عمومية للثقافة الانسانية ((ويرى الدارسون أن الثقافة ليست ظاهرة عضوية يمكن أن يراها الانسان كما يستطيع أن يرى مظاهرها المادية، أو حتى مظاهرها المعنوية، ذلك أنها في مضمونها ظاهرة نفسية تجد مكانها في عقول الأفراد ووجدانهم، ولا تبدو إلا من خلال الأفراد الذين يعبرون عنها)). فالشعبية حالة خاصة بالأدب الشعبي تساعد على الانتشار والتداول وليست صفة انتاجية جماعية كما يذهب إلى ذلك الكثير من الباحثين وأغلب المهتمين بدراسة الأدب الشعبي حين يركزون على أنه ينتشر بين أفراد المجتمع شفاهة . ولكن أنجعل من هذا الحكم قاعدة تُسير بها الأحكام ولو كانت الأخطاء في جوفها ؟

ونحن نعيش في زمن رقمي كل شيء يتم فيه بالكتابة الرقمية ، و التي أصبحت في متناول الجميع .

وهل نسقط هذه الأحكام واضرابها على الشعر الجاهلي الذي بقي في الشفاهية ما يناهز ثلاثة قرون ونقول عنه إنه شعر شفاهي أو إنه شعر شعبي (( إن مثل هذا الإدراك كان حريا بأن يقود إلى مناقشة التمييز على نحو منهجي يبحث في دوافعه ومصادر هذه الدوافع ومرتكزاتها، تمهيدا لاستخلاص مفهوم علمي غير أخلاقي وغير تراتبي)).

والسؤال المحير الذي يقابلني في كل صفحة أقرأها هو: لماذا يصر البعض في وقتنا هذا على جعل الأدب الشعبي أدبا شفويا مجهول المؤلف؟.

وإذا عدنا إلى قضية مجهول المؤلف، والتي وضعها الكثير ركنا من أركان الأدب الشعبي. فالحقيقة أنني أرى هذا الحكم ربما يصح نسبيا في البدايات الأولى وفي آنيتها مقبولا، لكن إبقاؤه إلى حالنا الراهن يعد ضربا من التجني على الأدب الشعبي فالسؤال المطروح هنا ما هي النصوص المجهولة المؤلف؟

لقد ذكرت في السابق أن الشعر (مثلا) أغلبه معروف القائل، وأن الشعراء أكثرهم يكتبون أسماءهم في نهاية القصيدة مع ذكر قبيلتهم ومكانهم وزمانهم ما عدا بعض المقاطع الشعرية فهي مجهولة مثلها مثل ما نجده في الشعر العربي الفصيح.

القضية تنحصر في الحكاية الشعبية، فهي صحيحة من حيث المبدأ مجهولة المؤلف، لأنها جاءت إلينا من عمق التاريخ وقد يحضرنا نص يتعدى عمره ستة آلاف سنة حسب عبد الحكيم شوقي.

والواقع لذي نعيشه ربما يخالف النظريات القديمة ويقوم بهدمها .

إن أغلب النصوص الحكائية مجموعة ، وكل باحث في النص الحكائي يقوم بجمع ما استطاع من النصوص ثم يسجلها في بحثه وبالتالي النص انتقل من الراوي أو الشفاهية إلى الكتابة .يأتي باحث آخر فهو لا يذهب إلى الراوي، بل يأخذ ما جمعه الأول فيقوم بدراسته فالباحث الثاني بالنسبة له ،النص مصدره معروف. ومن ثم يسقط حكم مجهولية المؤلف.

زيادة على ذلك فإن النصوص الحكائية أغلبها مسجل في الوسائط الحديثة تستطيع الوصول إليها وأنت في مكتبك لأن رواة القصص قد انقرض في أغلبهم.))والشيء الذي لا شك فيه هو أن الانسان السردى للحكاية الشعبية يتقلص باستمرار ،فالساكنة لم تعد تقبل على هذا النمط من السرد -كما كانت في الماضي- بحكم تغيرات الحياة وسرعتها أو بحكم النظرة السلبية التي ما فتئت تنمو اتجاه مختلف أشكال السرد التقليدية )).

وفي الأخير وأنت تطالع المراجع الخاصة تجد أن اصحابها - - كلهم تقريبا - يتفقون على أن الأدب الشعبي هو الذي يعبر عن طموحات وآمالى الشعب ويرصد تاريخه .

يقول حسين نصار ((إن الصورة الصافية الدقيقة للأدب الشعبي هي التي تضم الأدب الذي يعبر عن مشاعر الشعب وأحاسيسه، فالأدب الشعبي إذن هو الأدب الذي يصدره الشعب ويعبر عن وجدانه ويمثل تفكيره ،ويعكس اتجاهاته ومستوياته الحضارية)).

وهذا التعريف الذي وضعه حسين نصار مع غيره وهم كثر في الأدب الشعبي غير واضح وغير مفهوم معرفيا .قد راجعت الكثير من النصوص ولم أجد فيها هذا، أو لم أصل إلى هذا .لنأخذ مثلا قصيدة حيزية لابن قيطون التي

تعتبر من عيون الشعر الشعبي الجزائري في شكلها ومضمونها لا تعبر عن وجدان الشعب ولا تمثل تفكيره، بل هي قصيدة رثاء أو هي قصيدة بكائية، ويمكن القول إنها حالة ذاتية لوضع معين، ما ينطبق هنا، ينطبق على الشعر الرسمي، فليس هناك من القصائد التي تتجاوز الذات إلى الغير، ما عدا القصائد المناسبة.